خطبة طارق بن زياد

بين الشك و اليقين

د . سعد بوفلاقة - الجزائر

طارق بن زياد أحد الأبطال في تاريخ الإسلام. ورابع أربعة من الفاتحين في العصر الأموي إلى جانب موسى بن نصير، وقتيبة بن مسلم الباهلي، ومحمد بن القاسم الثقفي.

وقد اختلف النقاد المعاصرون حول أمرين مهمين فيما يخص طارق بن زياد هما: خطبته التي ألقاها في جنوده، واقدامه على حرق سفنه ليقطع أمل العودة على جنوده حتى يجدوا في قتال العدو!!

وهذه الدراسة تلقي الضوء على خطبة طارق بن زياد وتستعرض آراء من ينفونها والردود عليها..

(التحرير)

شخصية طارق بن زياد:

هو طارق بن زياد بن عبد الله، وُلد سنة ٥٠ هـ/٦٤٠م، وتولّى طنجة سنة ٨٩هـ/٧٠٧م، ثم فتح الأندلس سنة ٩٢ هـ/٧١٠م. أما وفاته فكانت على الأرجح سنة ١٠٢ هـ. وقد اختلف في نسبه، ولكن أرجح الأقوال أنّه بربريٌّ قُحٌّ.وقد ذكر له ابن عذاري أبوين في الإسلام.

نشأ طارق في بيئة عربية إسلامية، مع احتفاظه بلهجة أجداده البربرية، ثمّ جُنّد بعد ذلك في جيش موسى بن نصير، وجاء معه إلى المغرب، وكان من أشد رجاله[١].

مناسبة الخطبة:

أمّا الظرف الذي قيلت فيه الخطبة فهو كما ذكر ابن خلكان والمقري، أنّ طارق بن زياد لمّا استقر بأرض الأندلس، وبلغه دنوّ لذريق منه قام في أصحابه، فحمد الله وأثنى عليه، ثم حثّ المسلمين على الجهاد ورغّبهم في الشهادة، ثم قال: "أيها الناس، أين المفر..." [٢]. أمّا ابن هذيل الأندلسي، وهو من أهل القرن الثامن الهجري، الثالث عشر الميلادي، فأورد لنا رأياً آخر عن الظرف الذي قيلت فيه الخطبة، خالف فيه المؤرخين، فقال: "... فاقتتلوا ثلاثة أيّام أشد قتال، فرأى طارق ما الناس فيه من الشدة، فقام يعظهم ويحضهم على الصبر ويرغبهم في الشهادة ثم قال: أين المفر؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم..." [٣].

ومهما يكن من أمر فإنّ الظرف الذي قيلت فيه الخطبة هو فتح الأندلس، ولا يهم أكان ذلك قبل بدء المعركة الفاصلة أم أثناءها.

مصادر الخطبة:

لقد عاشت الخطبة في المصادر المغربية والمشرقية التاريخية والأدبية، كتاريخ عبد الملك بن حبيب[٤] المتوفى سنة ٢٣٨ هـ/ ٨٥٢م والإمامة والسياسة لابن قتيبة[٥]، المتوفى سنة ٢٧٦هـ/ ٨٨٩م، وسراج الملوك للطرطوشي[٦] المتوفى سنة ٥٢٠هـ/ ١١٢٦م، وريحان الألباب وريعان الشباب في مراتب الآداب لأبي محمد عبد الله المواعيني الإشبيلي[٧]، عاش في عصر الموحدين، ووفيات الأعيان لابن خلكان[٨] المتوفى سنة ٦٨١هـ/١٢٨٢م، وتحفة الأنفس وشعار أهل الأندلس لعلي بن عبد الرحمن بن هذيل[٩]، وهو من أهل القرن الثامن الهجري، ونفح الطيب للمقري[١٠] المتوفى سنة ١٠٤١هـ/١٦٣١م.

■ **لقد عاشت الخطبة في المصادر المغربية والمشرقية التاريخية والأدبية بنصوص متشابهة حيناً ومختلفة حيناً آخر، ولكنّها نالت شهرتها بفضل ابن خلكان الذي نقل حرفيات الخطبة عن مصدر لم يذكره.**

وقد وردت الخطبة في هذه المصادر بنصوص متشابهة حيناً ومختلفة حيناً آخر، ولكنّها نالت شهرتها بفضل ابن خلكان الذي نقل حرفيات الخطبة عن مصدر لم يذكره، ثمّ أخذها عنه المقري، فأورد لنا نصّاً "منقحاً ومشذباً" عما كان يتناقله المؤرخون والكُتّاب في تآليفهم ومصَنّفاتهم خلال عَصرهِ من أخبار تتعلق بالإطار البنائي والأدبي للخطبة دون مناقشتها وتحليلها[١١].

وقد اتخذنا نص "نفح الطيب" أساساً للدراسة باعتباره من أكمل النصوص التي وصلت إلينا، وإنْ كان اختلافُ النصوص في المصادر القديمة يدعو إلى الاعتقاد بأنّ الخطبة قد أدخلت عليها تعديلات وإضافات من قبل الأجيال اللاحقة حتى انتهت إلى الشكل الذي هي عليه الآن.

نص الخطبة[١٢]:

قال: "أيها الناس، أين المفر؟ البحر من ورائكم، والعدوُّ أمامكم، وليس لكم والله إلا الصدقُ والصبر، واعلموا أنّكم في هذه الجزيرة أضيَعُ من الأيتام، في مأدُبَة اللئام، وقد استقبلكم عدوّكم بجيشه وأسلحته، وأقواتُهُ موفورة، وأنتم لا وَزَرَ لكم إلا سيوفكم، ولا أقوات إلاّ ما تستخلصونه من أيدي عدوّكم.

وإن امتَدّت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمراً ذهبت ريحكم، وتعوّضت القلوب من رُعبها منكم الجراءة عليكم، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية، فقد ألقت به إليكم مدينَتُه الحصينة، وإنّ انتهاز الفُرْصَة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت، وإنّي لم أحذّركم أمراً أنا عنه بنَجْوة، ولا حملتكم على خُطة أرخصُ متاعٍ فيها النفوسُ (إلاّ وأنا)[١٣] أبدأ بنفسي.

واعلموا أنّكم إن صَبرتم على الأشق قليلاً، استمعتم بالأرْفَه الألذّ طويلاً، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي، فما حَظّكم فيه بأوفى من حظّي، (وقد بلغكم ما أنشأتْ هذه الجزيرةُ من الحور الحسان، من بنات اليونان، الرافلات في الدر والمَرْجان، والحُلَل المنسوجة بالعقْيان، المقصورات في قصور الملوك ذوي التيجان).

وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أميرُ المؤمنين من الأبطال عُرْبانا[١٤]، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختانا، ثقةً منه بارتياحكم للطّعان، واستماحكم بمُجالدة الأبطال والفُرسان، ليكون حظه منكم ثواب الله على إعلاء كلمته، وإظهار دينه بهذه الجزيرة، وليكون مَغْنَمُها خالصة لكم من دونه ومن دون المؤمنين سواكم، والله تعالى وليُّ إنجادكم على ما يكون لكم ذكراً في الدارين.

واعلموا أني أوّل مجيب إلى ما دعوتكم إليه، وأنّي عند مُلْتَقى الجمعين حاملٌ بنفسي على طاغية القوم لذريق فقاتلُهُ إن شاء الله تعالى، فاحملوا معي، فإن هلكت بعده

■ اختلافُ النصوص في المصادر القديمة يدعو إلى الاعتقاد بأنّ الخطبة قد أدخلت عليها تعديلات وإضافات من قبل الأجيال اللاحقة.

فقد كفيتكم أمره، ولم يُعْوزكم بطلٌ عاقل تسندون أموركم إليه، وإن هلكتُ قبل وصولي إليه فاخلفوني في عزيمتي هذه، واحملوا بأنفسكم عليه، واكتفوا الهمّ من فتح هذه الجزيرة بقتله، فإنهم بعده يُخْذَلون".

تحليل الخطبة:

تخلو هذه الخطبة من أيّ شكل من أشكال المقدمات، إذ يتناول طارق الموضوع مباشرة، ويشتمل على ثلاثة مقاطع متتالية تكوّن فيما بينها وحدة في الموضوع (الحث والتحريض على الجهاد).

المقطع الأول: الترهيب: ويبدأ بـ(أيها الناس، أين المفر؟..) وينتهي بـ(إلاّ وأنا أبدأ بنفسي).

وقد وجّه فيه طارق الخطاب إلى أصحابه، ورسم لهم صورة عامة للظروف التي هم فيها، مما يفرض عليهم الصمود والثبات لمجابَهة العدو، وقد اعتمد في ذلك على المقابلة بين وضعيتهم ووضعية أعدائهم، فالمسلمون محاطون بالبحر الذي خلفوه وراءهم، وبالعدو الذي يزحف نحوهم، وقد شبّههم في وضعهم هذا بالأيتام الضائعين في مأدبَة اللئام، لا سند لهم ولا معين إلا سيوفهم، ولا قوت إلاّ ما يستخلصونه بأنفسهم من أعدائهم الذين يتوافرون على جيش جرّار، وأسلحة كثيرة، وأقوات موفورة، ثم حذّرهم من خطورة النتائج، إنْ طالت بهم الأيام وهم على هذا الوضع، ولم ينفّذوا ماهم بصدده من القضاء على عدوهم، الذي يمكن أن ينقلب خوفُه منهم جرأة

عليهم[١٥]، أي: أنّه جعل جنوده في موقف حرج لا مجال فيه إلاّ للموت أو الاستماتة في القتال. وجعل نفسه مثالاً حيّاً يتقدم صفوف المجاهدين[١٦].

ولقد لجأ في خطبته إلى العقل أوّلاً دون العاطفة عندما وضع جنوده في الإطار الحقيقي بعد إحراق سفنه، وحين يسيطر العقل على العاطفة في الخطبة تغيبُ الصور عن الساحة، ويتوقف الخيال عن التّدخل... فحديث العقل هامسٌ هادئ، أمّا حديث العاطفة فحديث قارعٌ ضاجٌّ يستثيرُ النّوازع البدائية في النفوس كما تستثيرها الطبول بأصواتها القوية المدوية[١٧].

المقطع الثاني: الترغيب: ويبدأ بـ(واعلموا أنّكم إن صبرتم على الأشق قليلاً)، وينتهي بـ(والله تعالى ولي إنجادكم على ما يكون لكم ذكراً في الدارين).

وبعد أنْ فصّل في جانب الترهيب، عمد إلى الترغيب، ليبث في نفوس جنوده مزيداً من الحماس، فحثهم على الصمود والجهاد، وأوصاهم بالصبر على مشاق الحرب مدة قصيرة ليستمتعوا بثمار النصر زمناً طويلاً، ولينالوا رضى الخليفة (الوليد بن عبد الملك) الذي اختارهم من أبطال العرب والمسلمين لفتح تلك الجزيرة، رغبة منه في أنْ يكون حظه منهم ثواب الله عزّ وجلّ على إعلاء كلمته وإظهار دينه في هذه الأرض، وهو يعدهم بأنّ ما يُحْرِزُونَهُ من غنائم في الحرب حق خالص لهم لا يشاركهم فيه أحدٌ، لا الخليفة، ولا غيرُه ممّن لم يحارب معهم، ثم ذكّرهم بأنّ الله سبحانه وتعالى سيكون في عونهم على هذا العمل الصالح الذي سيكسبهم ذكراً حسناً في الدارين.

أمّا الفقرة التي وضعناها بين حاضنتين (في نص الخطبة)، فإنّنا نرتاب في نسبتها إلى طارق، ونعتقد أنّها من وضع بعض المستعربين (المستشرقين) الحاقدين على الإسلام والمسلمين وتدبيجهم، لأن ما ورد فيها لا يتلاءم والروح الإسلامية العالية التي يتميز بها الفاتحون الأوائل من أمثال طارق بن زياد، فالفارق واضح بين لغة الخطبة كلها، ولغة هذه الفقرة التي يُغري طارق فيها جنوده بفتيات الأندلس وبالحور من بنات اليونان (ولسنا ندري لماذا اليونان؟) اللائي يرّفلن باللآلئ والمرجان، وهن بنات الملوك والأمراء (كما زعموا). فهي فقرة شاذة طغى عليها السجع طغياناً لم نَجِدْه في سائر الخطبة من ناحية وانحَطّت لُغتُها في الوقت نَفسه إلى درك لا يمكن أنْ نظنّ معه أبداً أنّها وبقية أجزاء الخطبة من عمل واحد. إلى جانب ما جاء فيها من التناقض في المعاني، وفي الأسلوب، ومن مخالفتها لحقائق تاريخية، كإقحام كلمة "اليونان" في الفقرة، في حين أنّ المؤرخين الأندلسيين قد اعتادوا على استعمال كلمة "الروم" أو "القوط" وكذلك اصطلاح "العلوج والعجم أو المشركين والكفار"[١٨].

وفضلاً عن ذلك فإنّ المؤرخين العرب القدماء الذي ينتمون إلى أزمنة مختلفة، وأمكنة

متباعدة تجاهلوها، وكأنّها شيء لا أصل له في الخطبة، فلم يثبتها أحد من المؤرخين الأوائل، أمثال: عبد الملك بن حبيب، وابن قتيبة، والطرطوشي، وغيرهم. وأوّل من أورد هذه الفقرة في الخطبة هو ابن خلكان، ويبدو أنّ الفقرة قد أضيفت إلى الخطبة بعد عصر ابن خلكان عندما استولى الصليبيون على بلاد المسلمين وعبثوا بتراثهم.

وإذن، فلابد من الوقوف وقفة شكّ كبير أمام هذه الفقرة "ومما يزيد هذا الشك رسوخاً تلك الحقيقة التاريخية التي عُرفت عن الجيوش الإسلامية عامة. ولاسيما في تلك القرون الأولى من حملات الإسلام. وهي أنّ هذه الجيوش لم تكن تغزو للغزو وللغنائم التي ينالها الغزاة عادة، بل كانت تغزو في سبيل فكرة وعقيدة"[١٩].

المقطع الثالث: إبراز خطته الحربية في المعركة، ويبتدئ بـ(واعلموا أني أوّلُ مجيب إلى ما دعوتكم إليه)، وينتهي بـ(فإنّهم بعده يخذلون).

وبعد أنْ تناول جانب الترغيب مركزاً على الجانبين المادي والمعنوي معاً، انتقل إلى إبراز خُطّته الحربية في المعركة التي يقبل عليها، واضعاً كل الاحتمالات الممكنة أمام أعينهم تجنّباً للاضطراب أو تصدّع الصفوف في حالة استشهاد القائد، وقد أعلن عن خطته في اللحظات الحاسمة قبل نشوب المعركة، مما يدل على حنكته وبعد نظره[٢٠]، ثم أخبرهم بأنّ قتل لذريق ملك الأعداء سيسهل مهمة فتح الأندلس، لأن قومه سيخذلون بعد قتله، وقد اتخذ نفسه قدوة لجنده عندما تكفل هو بنفسه بقتل لذريق، وقال لهم: فإنْ مت بعد قتل الطاغية فقد كفيتكم شره، عندئذ تستطيعون إسناد أموركم إلى بطل عاقل يخلفني في قيادتكم.

الأسلوب:

الأسلوب في هذه الخطبة، يمتاز بالقوة والجزالة، وبالإيجاز والفصاحة، وبتماسك الجمل، والبعد عن الحشو والمبالغة وتكلف ما لا طائل تحته، وهو أسلوبٌ

■ **تزخر الخطبة بالعواطف الدينية الصادقة، وتتجلى في اهتمامه بالجانبين الروحي والمادي معاً.**

عربيّ النّسج، خالٍ من أية عجمة تشينه، أو غرابة وتعقيد يزريان به، ويحطّان من قدره، وهو فوق هذا بعيد عن المحسنات البديعية المتكلفة الممقوتة (باستثناء الفقرة المضافة المشار إليها سلفاً)، والسجع الموجود في الخطبة من السجع القصير الفقرات الذي لا ينبو عنه الذوق، ولا تَمجه الأسماع، تجري على طبيعتها، وعلى هدى معانيها.

العاطفة:

تزخر الخطبة بالعواطف الدينية الصادقة، وتتجلى في اهتمامه بالجانبين الروحي والمادي معاً، وفي سعيه إلى الاستشهاد بإيمان كبير وروح عالية، وحث قومه على الجهاد، وفي بعض المعاني التي يستمدها من القرآن الكريم[٢١].

المعاني:

ومعانيه واضحة سهلة، بعيدة عن العمق والتكلف، خالية من الصور الفلسفية، فنلحظ تأثر طارق بالقرآن الكريم والحديث الشريف، ولاسيما حين يتحدث عن الأثر النفسي للتقاعس واحتمال تجرؤ العدو عليهم بعد جبنه أمامهم، ثم حين يغريهم بالألذ والأرفه بعد الأشق القليل، وكأنّه يقيس تلك المكافأة الدنيوية على العمل الطيب بمكافأة الآخرة على الدنيا[٢٢].

خلاصة:

في ختام حديثنا عن تحليل الخطبة، يجدر بنا أنْ نسجل الملاحظات الآتية:

أ. إنّ مجمل الروايات العربية والإسلامية، قد أشادت بهذه الخطبة، ونوّهت بما كان لها من أثر في إذكاء شجاعة

الجند، وتَمتين الثقة في نفوسهم لتحقيق الانتصار والظفر بهذه الجزيرة[٢٣].

ب - تفكير طارق من خلال هذه الخطبة تفكير سليم، فهو يجيد التعليل والتدليل، ويحسن تقديم الحجج والبراهين.

ج - له ذكاء متوقدٌ، يسبر أغوار النفس البشرية، ويعرف ما يدور في أذهان المستمعين، فيخاطبهم حسب عقولهم.

د - له مخيلةٌ نشطةٌ، وإحساسٌ مرهفٌ، فمخيلته تُجسّمُ الأفكار، وتصنع الخطط، وتصوّر المواقف، وإحساسُه يتلقى التأثيرات ويعكسُها لجنُوده، وما فعله مع جنوده حين جعل نفسه مثالاً حياً يتقدم صفوف المجاهدين يذكرنا بالقول المأثور: "إذا أردت أن تبكيني فابدأ أنت بالبكاء".

هـ - كانت ثقتهُ في نفسه وفي جيشه كبيرةً، وكان جريئاً في آرائه، رابط الجأش في موقفه.

و - كان صادقاً مع جنوده لا يراوغ ولا يخاذل.

ز - تعدّ هذه الخطبة، أوّل ريح معطرة بالبلاغة تَهبُّ على أرض الأندلس[٢٤].

ح - التزم فيها بلازمة الخطبة (أيها الناس)، كما التزم بالإيجاز، إذ لا إطناب، لأنّ الظرف غير مناسب لذلك، والإيجاز يطلب في ثلاث حالات (الحروب، والتهنئة، والتوصية).

ط - وجملة القول: إنّ خطبة طارق بن زياد، في مجملها جيدة من حيث قيمتها الفنية، وهي تدل على رسوخ ملكة البيان في القواد وخبرتهم بالقيادة ونفوس الجند[٢٥].

خطبة طارق بين الشك واليقين

لقد اختلف الدارسون بشأن هذه الخطبة وبشأن الأبيات التي قالها طارق بن زياد في الفتح، وأوردها المقري في النفح نقلا عن الحجاري في "المسهب" وابن اليسع في "المغرب"[٢٦]، فاختلفوا في نسبة هذين النصين إليه، فوقف بعض الباحثين وقفة شك في نسبة الشعر والخطبة إليه وأثبتهما له باحثون آخرون، وسنتناول آراء هؤلاء وهؤلاء في هذه الخطبة ونسبتها إلى طارق، ثم نبين بطلان هذا الشك.

● الشاكون في الخطبة:

لقد شك بعض المؤرخين في صحة هذه الخطبة ونسبتها إلى طارق، ويبدو أنّ هذا الشك جاء أولاً من بعض المستشرقين الذين يشك في نياتهم[٢٧] (لأن الاستشراق والاستعمار والتبشير.. ثلاثة أسماء لشيء واحد)، ثم حذا حذوهم بعض مؤرخي العرب، فشكوا هم بدورهم في نسبة الخطبة، ومن هؤلاء الدارسين الشاكين: الدكتور أحمد هيكل[٢٨] والدكتور عمر الدقاق[٢٩]، والأستاذ محمد بن تاويت والدكتور محمد الصادق العفيفي[٣٠] والأستاذ محمد عبد الله عنان[٣١]، والأستاذ محمد حسن كجة[٣٢]، والدكتور عمر فروخ[٣٣]، والدكتور أحمد بسام الساعي[٣٤] والدكتور سوادي عبد محمد[٣٥]، والدكتور عبد الرحمن الحجي[٣٦]، وغيرهم. غير أنه يكاد يكون الدكتور أحمد هيكل في كتابه (الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة) هو الأصل لمعظم الدراسات التي ظهرت بعده في هذا الموضوع، وعليه اعتمد الدارسون الآخرون حيث نقلوا كلامه بتصرف، ولهذا سنورد رأيه دون الالتفات إلى آراء الآخرين.

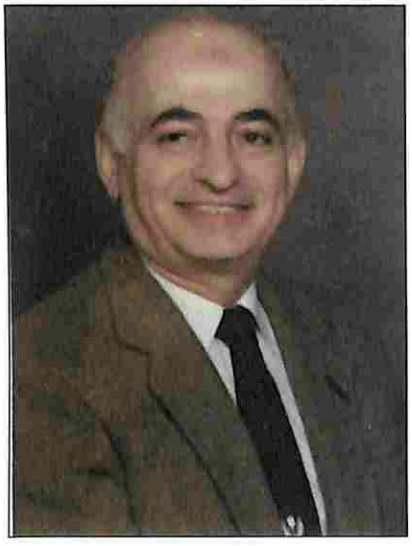

د. أحمد بسام ساعي

● **أسباب الشك.**

يرتاب الدكتور أحمد هيكل ومن حذا حذوه في نسبة الخطبة إلى فاتح الأندلس، ويرون أن نسبتها إليه يحف بها كثير من الشك، وذلك لعدة أسباب منها:

أ - أن طارق بن زياد كان بربرياً مولى لموسى بن نصير، وكان أول عهده بالإسلام والعربية عام تسعة وثمانين للهجرة (٨٩هـ/ ٧٠٧م)، وهو العام الذي استولى فيه موسى بن نصير على بلاد المغرب، فلا يعقل أن يكون طارق قد اكتسب في هذه السنوات الثلاث اللسان العربي الفصيح والملكة البلاغية الرفيعة التي تؤهله لإلقاء مثل هذه الخطبة.

ب - ومن أسباب هذا الشك أنّ المصادر الأولى التي سجلت حوادث الفتح، قد خلت تَماماً من أيّ حديث عن هذه الخطبة، ولم يرد ذكرها إلاّ في بعض المصادر المتأخرة كثيراً عن فترة الفتح، كنفح الطيب للمقري.

ج - ومن أسباب الشك أيضاً أسلوب الخطبة الذي لم يكن معروفاً في تلك الفترة، فالسجع والمحسنات البديعية، قد عاشت في عصر متأخر كثيراً عن أواخر القرن الأول الهجري..

د - أمّا "العربان" الذين ذكرهم طارق في خطبته "وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك من الأبطال عرباناً". فلم يكونوا في حقيقة الأمر، وحسب المصادر التاريخية الموثوقة "عُرباناً"، بل كان معظم أفراد جيش طارق من برابرة المغرب[٣٧].

● **بُطلان هذه الأسباب بالدليل العقلي:**

يبدو في كلام الدكتور أحمد هيكل ومن سار في فلكه مبالغة واضحة، ونحن نختلف معهم فيما ذهبوا إليه، ونرد عليهم بالحجة فيما يأتي:

أ - بالنسبة إلى السبب الأول، المتعلق بكون طارق بن زياد حديث عهد بالإسلام والعربية، وأنّه لا يستطيع الخطابة بلغة هو حديث عهد بِها.

يبدو أنّ الذين رأوا هذا الرأي لم يدققوا النظر في حياة الرجل الذي كان على صلة بالعروبة والإسلام منذ حداثته، فقد ذكر لهُ ابن عذاري أبوين في الإسلام (طارق بن زياد بن عبد الله، وأغلب الظن أنّه ليس هو الذي أسلم أوّلاً، بل والده وجده الذي يكون قد سُبيَ في إحدى حملات الفتح

الأولى وأخذ إلى (مصر) أو (الشام)، وهناك في ديار الإسلام نشأ طارقٌ مسلماً، فأحسن العربية مع الاحتفاظ بلهجة أجداده البربرية، ثم جُنِّد بعد ذلك في إحدى حملات موسى بن نصير، وجاء مَعَهُ إلى المغرب[٣٨].

ب - وأمّا بالنسبة إلى إهمال المصادر القديمة لهذه الخطبة، وظهورها في كُتُبِ المؤرخين والأدباء المتأخرين، على حدّ زعمهم، فهذا الأمر لا ينهض دليلاً على رفضها، لاسيما ونحن نعرف أنّ ما وصلنا منْ هذه المصادر قليل جدّاً، وما زلنا ننتظر أنْ يصلنا يوم يُكشَفُ النّقابُ فيه عن تراثنا الدفين، ثم إنّ القول بإهمال المصادر القديمة لهذه الخطبة قولٌ مبالغ فيه، فقد فات الدكتور أحمد هيكل والأستاذ عبد الله عنان ومن حذا حذوهما أن يطلعوا على كُتُب كثيرة ألفتْ قبل "نفح الطيب" ورَدَتْ فيها هذه الخطبة بنصوص متشابهة حيناً، ومختلفة حيناً آخر[٣٩]، وهي:

١ - تاريخ عبد الملك بن حبيب.
٢ - الإمامة والسياسة لابن قتيبة.
٣ - سراج الملوك للطرطوشي.
٤ - ريحان الألباب وريعان الشباب في مراتب الآداب للمواعيني الإشبيلي.
٥ - وفيات الأعيان لابن خلكان.
٦ - تحفة الأنفس وشعار أهل الأندلس لابن هذيل.
٧ - نفح الطيب للمقري.

وإذن، فقد وردت هذه الخطبة المنسوبة إلى طارق في مصادر قديمة، مشرقية ومغربية، دون أن يتفطّن إليها هؤلاء الشاكون، ولم يكن صاحب نفح الطيب أوّل من أوردها، على حدّ زعمهم.

ج - أمّا عن أسلوب الخطبة الذي لم يكن معروفاً في تلك الفترة، فالسجع والمحسنات البديعية، قد عاشت في عصر متأخر عن أواخر القرن الأول الهجري على حدّ رأيهم.

لقد أشرنا إلى هذه المسألة عند حديثنا عن الأسلوب، وبيّنا بطلان هذا الزعم، فأسلوب الخطبة هو أسلوب الخطابة في ذلك العصر، بشكل عام، يمتاز بالقوة والجزالة، وهو فوق ذلك بعيد عن المحسنات البديعية المتكلفة ما عدا الفقرة التي يغري فيها طارق جنوده بفتيات الأندلس. فهي ليست من إنشاء طارق، وإنما أضافها بعض المستشرقين الحاقدين على الإسلام والمسلمين لتشويه التاريخ الإسلامي المجيد بجوانبه المتعددة، فالجيوش الإسلامية لم تكن تغزو من أجل الغنائم وإنما كانت تغزو في سبيل فكرة وعقيدة، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك.

د - أمّا فيما يتعلّقُ بكلمة (عربان)، فقد وردت في بعض النسخ بالزاي المعجمة (عزبان: جمع عزب)، وعلى هذا الوجه ينتفي الشك الذي استندوا إليه، لأنّ معظم أفراد جَيْشه الذي جهّز به حملته كان من برابرة المغرب[٤٠].

● المثبتون للخطبة:

وإذا كان بعضُ الدّارسين قد شكّوا في صحة هذه الخطبة ونسبتها إلى طارق - كما رأينا - انطلاقاً من حجج نراها واهية، فإنّ هناك باحثين آخرين رَدوا على من شك في صحتها، وتصدوا لإثبات صحتها ونسبتها، ومن هؤلاء الدارسين أستاذنا الدكتور عبد السلام الهراس الذي "أورد نصوص خطبة طارق من المصادر المختلفة التي أحصاها، وهي: نص ابن خلكان، ونص الإمامة والسياسة، ونص تحفة الأنفس لابن هذيل، ونص ريحانة الألباب للمواعيني،

ونص عبد الملك بن حبيب، ونص الطرطوشي، ونص نفح الطيب وهو المعروف المتداول، وقارن بينها، واستخلص منها ثلاث صور للنص مختلفة بعض الاختلاف ولا سيما في الصياغة هي:

أ - نص الإمامة والسياسة.

ب - نص ابن خلكان ونفح الطيب.

ج - نص ابن هذيل، وهو يجمع بين النصين السابقين.

وتوصل من خلال دراسته

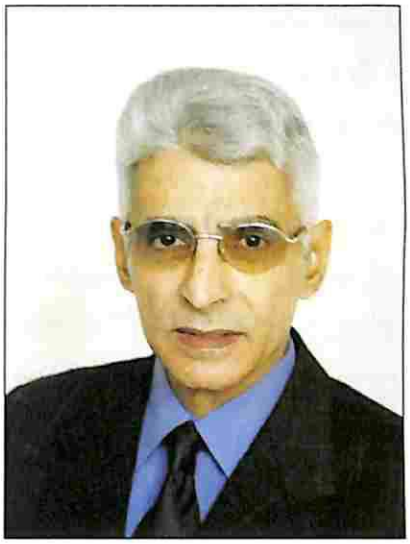

د . عباس الجراري

لهذه النصوص إلى إثبات صحتها"(٤١). كما أثبتها الأستاذ عبد الله كنون(٤٢)، والعلامة شكيب أرسلان(٤٣)، والأستاذان: محمد الطيب وإبراهيم يوسف(٤٤)، والدكتور علي لغزيوي(٤٥) والدكتور عباس الجراري الذي تناول نص الخطبة على أساس أنّها من الأدب المغربي "وأورد نصوصها من المصادر السابقة، وانتهى إلى إثباتها مع الإشارة إلى بعض

الهوامش:

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، ج٢، ص: ٤ وما بعدها. وابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص: ٢٨ وما بعدها. وأخبار مجموعة لمصنف مجهول، ص:٦ وما بعدها. وحسين مؤنس، فجر الأندلس، ص٦٧ وما بعدها. وعبدالله كنون: النبوغ المغربي في الأدب العربي، ص:٣٩ . وسيف الدين الكاتب: طارق بن زياد فاتح الأندلس، ص: ٦ وما بعدها، والدكتور سهيل زكار: مائة أوائل من تراثنا، ص١٧٠، وانظر تاريخ العرب والإسلام له، ص٤٢٣.

(٢) انظر المقري: نفح الطيب مج١، ص: ٢٤٠.

(٣) انظر تحفة الأنفس وشعار أهل الأندلس (النسخة المخطوطة التي نشرها مصورة لويس مرسييه في باريس، سنة ١٩٣٢، ص : ٧٠ - ٧١، نقلاً عن د.سوادي عبد محمد: طارق بن زياد، ص: ٨٤، بغداد ١٩٨٨).

(٤) نشر جزءاً من الكتاب الدكتور محمود مكي في صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، العدد ٥، ص : ٢٢٢ نقلاً عن الدكتور عبد الرحمن علي الحجي في كتابه: التاريخ الأندلسي، ص : ٥٩.

(٥) انظر: ج٢، ص : ١٠٦ - ١٠٧، طبعة موفم للنشر، الجزائر، ١٩٨٩.

(٦) انظر: ص: ١٥٤، نقلاً عن الدكتور عباس الجراري في كتابه: الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه، ص: ٦٦ - ٦٧، مكتبة المعارف، الرباط، ١٩٧٩م.

(٧) مخطوط بالخزانة الحسنية بالرباط رقم ٢٦٤٧. نقلاً عن د.عباس الجراري: المرجع السابق، ص: ٦١.

(٨) انظر: مج٥، ص: ٣٢١ - ٣٣٢، ط.دار الثقافة، بيروت.

(٩) انظر: ابن هذيل، تحفة الأنفس...، ص: ٧٠ - ٧١.

(١٠) المقري: نفح الطيب، مج١، ص: ٢٤٠ - ٢٤١.

(١١) د.سوادي عبد محمد: المرجع السابق، ص: ٨٥ - ٨٦.

(١٢) انظر المقري: نفح الطيب (تحقيق إحسان عباس)، مج١، ص: ٢٤٠ - ٢٤١.

(١٣) زيادة من ابن خلكان.

(١٤) عُرباناً: وردت في بعض النّسخ بالزاي المعجمة (عزبان: جمع أعزب كأعمى وعميان، أو جمع عازب: كصاحب وصحبان، أو جمع عَزِيب: كشجيع وشجعان: وهو الذي لم يتزوج، ويبدو أنّ هذه الرواية هي الصحيحة بدليل قوله بعد ذلك "ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهارا وأختانا".

(١٥) علي لغزيوي: أدب السياسة والحرب في الأندلس، ص: ٤١٢، مكتبة المعارف، الرباط، المغرب، ١٩٨٧م.

(١٦) الموجز في الأدب العربي وتاريخه، وضع لجنة من الأساتذة بالأقطار العربية، ص: ١٥٧، دار المعارف، القاهرة.

(١٧) الدكتور أحمد بسام الساعي: خطبة طارق بن زياد هل قالها حقاً؟ مجلة العربي، العدد ٢٩٣، أبريل ١٩٨٣.

(١٨) د.سوادي عبد محمد: المرجع السابق، ص: ٨٦.

(١٩) د.أحمد بسام الساعي: المرجع السابق.

الشك حولها بسبب اختلاف النصوص. ولكنّه يرجّح أنّها ليست من إنشاء طارق، وإنما كتبت له ليلقيها في الجيش"[٤٦] وقد تناول السمات الفنية للخطابة في هذا العصر، فوازن بين خطب الأمويين بالمشرق وخطبة طارق من الناحية الفنية، وتوصل إلى النتائج نفسها المشار إليها آنفاً[٤٧].

● **وبعد :**

فنحن لا نشك في صحة الخطبة ونسبتها إلى طارق، ولا في حادثة إحراق السفن، وإن شك فيهما كثير من الناس، ونرى أنّ نسبة الخطبة إليه ثابتة، وإن كان اختلاف النصوص في المصادر القديمة يدعو إلى الاعتقاد بأنّ الخطبة قد أدخلت عليها تعديلات وإضافات من قبل الأجيال اللاحقة حتى انتهت إلى الشكل الذي هي عليه الآن، بل الراجح أنّ طارقاً لابد أنْ يكون قد خطب في جنوده خطبة أثارت حماسهم، هي من أروع ما سجّله الرواة، خطبة تنبع من قلب قائد عظيم يقاتل في سبيل الله.

ولكننا نظنّ أنّه ألقاها بأسلوب مبسط، مع ترجمة إلى اللهجة القبائلية -كما يفعل بعض الخطباء اليوم-، لأنّها وجهت إلى جنود معظمهم من البربر، لم تكن لغتهم العربية قد وصلت إلى مستوى عال مما عليه الخطبة فهم حديثو العهد بالإسلام والعربية، ولاسيما أنّ العربية هي أبطأ في الانتشار من الإسلام[٤٨] ■

---

(٢٠) علي لغزيوي: المرجع السابق، ص : ٤١٣.

(٢١) علي لغزيوي: المرجع السابق، ص : ٤١٤.

(٢٢) د.أحمد بسام الساعي: المرجع السابق.

(٢٣) د.سوادي: المرجع السابق، ص : ٨٨.

(٢٤) د.محمد خليفة وزكي سويلم: المرجع السابق، ص: ١٠٩.

(٢٥) د.محمد خليفة وزكي سويلم: المرجع السابق، ص : ١٠٦.

(٢٦) انظر: المقري: نفح الطيب، مج١، ص: ٢٦٥.

(٢٧) محمد الطيب عبد النافع وإبراهيم يوسف: تاريخ الأدب والنصوص. ص: ١٧٢.

(٢٨) انظر كتابه: الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، ص: ٦٧ وما بعدها.

(٢٩) انظر كتابه: ملامح الشعر الأندلسي، ص: ٤٨ ـ ٥٩.

(٣٠) انظر كتابهما: الأدب المغربي، ص: ١٠٣ ـ ١٠٤.

(٣١) انظر كتابه: دولة الإسلام في الأندلس، العصر الأول، القسم الأول، ص: ٤٧.

(٣٢) انظر كتابه: محطات أندلسية، ص: ٣٢.

(٣٣) انظر كتابه: تاريخ الأدب العربي، ج٤، ص: ٤٠ (هامش ١).

(٣٤) د.أحمد بسام الساعي: المرجع السابق.

(٣٥) انظر: سوادي عبد محمد: المرجع السابق، ص: ٨٣ وما بعدها.

(٣٦) انظر كتابه: التاريخ الأندلسي، ص: ٥٩ وما بعدها.

(٣٧) انظر: أحمد هيكل: المرجع السابق، ص: ٦٩ وما بعدها.

(٣٨) الدكتور سهيل زكار: مائة أوائل من تراثنا، ص: ١٧٠. وانظر كتابه: تاريخ العرب والإسلام، ص: ٤٢٣.

(٣٩) الدكتور عباس الجراري: الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه، ص: ٥٨ ـ ٥٩.

(٤٠) انظر: نفح الطيب، مج١، ص: ٢٤٠ ـ ٢٤١.

(٤١) د.أحمد بسام الساعي: المرجع السابق.

(٤٢) د.علي لغزيوي: المرجع السابق، ص: ٤١٤ ـ ٤١٥.

(٤٣) انظر النبوغ المغربي، ج١، ص : ٢٩، وانظر مقالته: حول خطبة طارق في مجلة دعوة الحق، العدد: ٦ ـ ٧ ، السنة ١١.

(٤٤) انظر كتابهما: تاريخ الأدب والنصوص الأدبية ص: ١٧٢.

(٤٥) انظر كتابه: أدب السياسة والحرب، ص: ٤١٤.

(٤٦) انظر بحث الدكتور عباس الجراري عن: نشأة الأدب العربي في المغرب، ظروفها ومظاهرها، مجلة المناهل المغربية، العدد: ٢، ص: ١١١ ـ ١١٩، اقتبسه الدكتور علي لغزيوي في كتابه : أدب السياسة والحرب، ص: ٤١٥.

(٤٧) انظر كتابه: الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه، ص: ٥٣ وما بعدها.

(٤٨) انظر الدكتور السيد عبدالعزيز سالم: تاريخ المسلمين، ص٧٨ . و دكتور سوادي عبد محمد: المرجع السابق، ص٨٦.